سوق الأباطيل لثاكرى

بقلم
الدكتور نظمى لوقا
الأستاذ بكلية المعلمين

سيرة تحليلية

كان مولد « وليم ميكبيس ثكرى » فى بقعة من بلاد الشرق الساحرة : فى كلكتا الحاضرة الهندية العريقة فى الثامن عشر من يوليو سنة ١٨١١ ، حيث كان أبوه ونفر من أقربائه يحتلون المناصب العالية فى الإدارة الإنجليزية . ووليم الابن الوحيد لوالده ريتشموند ثكرى .

وما أن بلغ الخامسة من عمره حتى أرسل إلى إنجلترا ليتلقى تعليمه فى مدرسة داخلية من أرقى مدارسها . فجرب الطفل وليم فى تلك السن الباكرة مضاضة الغربة التى زادت من وحشتها على الطفل الوحيد المدلل المنعم فظاظة المعلمين القساة ، وخشونة رفاقه من أبناء الطبقة الثرية الإنجليزية ومشاكساتهم . وكان يغريهم به ضعف بصره وثقل حركاته وفشله فى ممارسة ألعابهم وأفانين شيطنتهم ، إلى أن اكتشفوا لديه بعد فترة من الوقت موهبة نادرة هى قدرته الخارقة على رسم الصور الكاريكاتورية الساخرة المضحكة لناظر المدرسة ومعلميها ، فاتخذه رفاقه إماماً لحملات السخرية . وزادت مكانته لديهم رسوخاً حين اكتشفوا فيه بعد ذلك قدرة فذة على رواية القصص الساخرة التى يندد فيها بطباع أولئك المربين القساة ولازماتهم فى الكلام والإيماء والسلوك !.

وليس أدل على تأصل روح الفكاهة فيه من تناوله لحلقته وأنفه المفرطح بالسخرية اللاذعة عن طريق القلم وعن طريق اللسان معاً . فبعد أن كان الآخرون يضحكون منه صار هو أول الضاحكين من نفسه ، فانقلب من أضحوكة إلى فنان ضاحك . وشتان هاتان المرتبتان ! فالضحك فى الحالة الأولى مبعثه الزراية ، وفى الحالة الثانية مبعثه الإعجاب !

وبعد أن تخرج فى المدرسة الثانوية دخل كلية الثالوث الشهيرة بجامعة كمبريدج ، وهناك راح ينفق ببذخ باعتباره الوريث الأوحد لثروة ضخمة يضفى عليها الشرق من أساطيره ألواناً من المبالغة والتهويل ، فجره إسرافه فى المقامرة إلى استدانة مبالغ باهظة . ثم ضاقت نفسه بحياة الدرس فى الجامعة فهجرها إلى ألمانيا حيث قضى عاماً فى المشاهدة والاطلاع والمرح .

وأغرته موهبته فى الرسم الكاريكاتورى بأن يتخذ فن الرسم مهنة يوجه إليها جهوده ، فيمم شطر قبلة

الفنون فى أوربا : باريس ، وقضى فى الحى اللاتينى المشهور فترة من الزمن بين فنانيه البوهيميين تأهباً للمستقبل الذى نازعته إليه نفسه .

وفى باريس نزلت به الصدمة التى أيقظته من أحلامه : فاذا الثروة الطائلة التى كان يظن أنه ورثها عن أبيه وقد أصبحت أثراً بعد عين . والفضل فى ذلك إلى حد ما راجع بلا شك إلى إسرافه الشديد فى الإنفاق وشغفه بالمقامرة . ولكن تلك الحماقات وحدها ما كانت لتقضى على ميراثه لولا أن الرجل الذى تزوج أمه بعد وفاة أبيه ووكل إليه تدبير الثروة أساء تصريف الأمور وتورط فى عمليات مالية جرت عليه الخراب العاجل .

وكان قد تزوج وهو فى سن الخامسة والعشرين شابة رقيقة خيالية النزعة فقيرة وأنجب طفلا . وما أن ولد الطفل حتى ألفى وليم ثكرى نفسه خالى الوفاض لا يملك من متاع الدنيا شروى نقير . ولم يعد فى وسعه أن يستقبل الحياة خفيف القلب خلى البال وقد صار مسئولا عن زوجة وولد ، فلا بد له من كسب ما يعولها به من عرق الجبين ، وهو الذى أضاع شبابه من غير أن يتم تأهيل نفسه لمهنة من المهن المتعارف عليها للتعيش.

وبدأت الحياة تتكشف له عن وجه لم يعرفه لها من قبل : فاخوان الرخاء ورفاق البحبوحة والثراء تنكروا له جميعاً . فكان آخر عهده بمودتهم هو آخر عهده برنين الذهب . وأولئك النقاد الذين كانوا يأكلون طعامه ويشربون نبيذه ويطرون موهبته فى الرسم أشاحوا عنه بوجوههم عندما قصدهم ليدبروا له عملا لتنفيذ المصورات التوضيحية فى دور النشر ، أو لعمل الرسوم الكاريكاتورية فى الصحف والمجلات . ولم يتورعوا أن يصارحوه بأن مرتبته فى الفن تزكيه لمقام عال فى الهواية ، بيد أنها أدنى من أن ترفعه إلى مستوى الاحتراف . . .

وألفى نفسه مضطراً للتفكير فى عمل لم يخطر بباله من قبل أن يزاوله فى يوم من الأيام ، وهذا العمل هو الكتابة !

كان وليم ثكرى وهو يُعد نفسه للمجد فى فن الرسم يتلهى أحياناً بكتابة نبذ ضاحكة تنشرها الصحف مجاملة له ، أو على الأصح مجاملة لمآدبه السخية التى يقيمها للمحررين والنقاد . وها هو اليوم لا يجد أمامه بعد أن سدت سائر الأبواب فى وجهه إلا أن يطرق باب الكتابة الصحفية . وكانت الكتابة فى الصحف يومئذ لا تراعى فيها مستويات خاصة ، فلم يجد بعض المحررين بأساً فى إلحاق وليم ثكرى بالجيش الجرار من العاملين فى تلك المهنة بين مخبرين ومعلقين مغمورين .

ومن هذا الباب الخلفى — باب الخدم — دخل وليم ثكرى قصر صاحبة الجلالة . ولم يكن حريصاً على لمعان الاسم فى هذا المضمار . وإنما هو مصدر للارتزاق ألجأته إليه الحاجة إلى حين . بل إن الكتابة على إطلاقها لم تكن مطمحاً يرنو إليه بعد أن احترف الصحافة . لأن الكتاب — حتى الأدباء النابغين منهم — كانت النظرة إليهم فى ذلك الحين تغض من قدرهم الاجتماعى ولا ترتفع بهم إلى طبقة السادة المحترمين .

وهذا هو السر فى تنكر وليم ثكرى تحت أسماء مستعارة كثيرة مضحكة كان يوقع بها ما ينشر له فى الصحف ، وأوائل كتبه . وقد تنوعت هذه الكتابات من عرض الكتب إلى النقد الفنى . ومن القصص القصيرة المضحكة إلى مقالات الرحلات والتقليد التهكمى لأساليب الكتاب المشهورين .

ورغم هذا التنكر لفتت موهبته الأنظار وبدأت مكانته ترتفع فى دنيا الصحافة . وبدا له أن الدنيا توشك أن تقبل عليه بعض الشىء ، وإذا بكارثة مصمية تحيق به ، فقد جنّت زوجته وذهب بعقلها ما لقيته من شظف وخوف من المستقبل .

وهكذا صار على وليم ثكرى أن يرعى بنفسه طفلتيه وأن يتكفل بنفقات زوجته المخبولة فى مصح للأمراض العقلية . بيد أن تلك الأعباء المالية المبهظة

لم تكن أسوأ ما منى به . فالعبء النفسى كان أشد عليه من كل عبء . فلم تبق أمام الرجل بارقة أمل فى أن يحيا يوماً ما حياة عائلية هادئة سوية . أو يجد الاستقرار النفسى الذى يعينه على مشقات الحياة القاسية وهو ينتزع الرزق من شق القلم الذى يثير به الضحك والابتسام .

وما أقل البيوت التى كانت تفتح لهذا الضاحك الباكى أبوابها من بين عشرات البيوت التى كانت تشرف باستقباله وهو فى أبهة الثراء . من تلك البيوت القليلة بيت زميله فى الدراسة « وليم بروكفيلد » الذى انتهى به الأمر واعظاً فى كنيسة من كنائس لندن وبنى بشابة رقيقة حسناء ذات ذكاء لماح وإحساس مرهف ونسب معرق فى الأرستقراطية . ووجد ثكرى منها عطفاً شديداً فى محنته الجديدة . وسرعان ما صارحه قلبه بما بدأ يخامره من عشق يائس لزوجة صديقه الحسناء .

وفى تلك الفترة المضطرمة المائجة من حياته شرع وليم ثكرى يكتب «سوق الأباطيل» . . . . فكان كل ما تمرس به فى حياته من خفض عيش وعنت ، وما تكشف له فى الدنيا من إقبال وتنكر ورياء ينبوعاً ثرياً لصفحات تلك الإلياذة الفذة ، الملحمة الاجتماعية التى نعتها بحق أنها بغير بطل .

كل شىء مر به فى حياته أعده خير إعداد كى يكون مؤلف « سوق الأباطيل » . تلك الأباطيل التى عرف وجهها السافر تحت قناعها الموشى . وعشر سنوات من العمل الصحفى الشاق شحذت أسلوبه فجعلته دقيقاً مرهفاً كمبضع الجراح . ومكانته الاجتماعية التى اكتسبها بنسبه عرفته من الداخل بصميم الطبقة العليا فى بلاده وبواعث سلوكها وطريقة نظرها إلى الأمور كافة . ثم جاءت فاقته اللاحقة فأتمت تثقيفه الاجتماعى إذ عرفته بالجانب الكالح من الحياة . وأسهمت أسفاره خارج الحدود فى تكميل مصادر فنه بما أتاحته له من قدرة على وصف المشاهد والمنادح فى بلاد القارة الأوربية ببساطة وصدق . وانفضاض إخوان السراء عنه رفع الغشاوة عن عينيه فبدت له الطبيعة البشرية على حقيقتها العارية . وكان حرياً أن يجنح فى سخريته إلى القسوة لولا بضعة نفر من أوفياء الخلان منحوه الحب والعطف فى وقت الشدة فلم تجحد نفسه نوازع الخير فى البشر ولم يفقد إيمانه الكامن الوطيد بفضائل الولاء والإخلاص والإيثار ، وأسبغ ذلك على سخريته لوناً إنسانياً حانياً أنيساً فلا تخلو صفحاته الحالكة من إحساس خفى بالخيرية وسخاوة النفس .

وهذا هو مصدر ذلك المزيج العجيب فى « سوق الأباطيل » من العطف والمرارة ومن السخرية والاستسلام ، وأنك تلمح الكاتب على طول تلك الرواية الضخمة يقوم بدور مزدوج : فهو فى آن واحد مراقب محايد يسجل الأحداث ومشارك بعواطفه جميعاً فى تلك الأحداث التى يرقبها ويسجلها .

ولئن كانت « سوق الأباطيل » هى درة أعماله القصصية فإن له ثمانية وعشرين كتاباً غيرها . نشر ستة منها فى فترة التجريب والمحاولة التى سبقت « سوق الأباطيل » وهى :

١ — مذكرات مستر « يلو بلاش » التى أتم نشرها على حلقات فى سنة ١٨٣٨ وندد فيها بالقصص التى تتخذ الجريمة والرذيلة موضوعاً لها .

٢ — « كاثراين » وقد نشرها على حلقات فى سنتى ١٨٣٩ و ١٨٤٠ وقد واصل فيها هجومه على مدرسة نيوجيت القصصية واتجاهها العاطفى فى النظر إلى المجرمين ، ونمط ذلك الاتجاه هو قصة « أوليفر تويست » لديكنز .

٣ — « حكاية مهلهلة » نشرها على حلقات فى سنة ١٨٤٠ وقد تعودت دور النشر بعد ذلك أن تجعلها تمهيداً لمغامرات فيليب .

٤ — « تاريخ مستر صمويل تيتمارش وماسة هوجارتى الكبرى » وقد نشرها على حلقات فى سنتى ١٨٤١ و ١٨٤٢ وهى قصة تنقصها الجدية كسابقتها ، وربما كانت فى كثير من جوانبها سيرة ذاتية ببعض ما مر بالمؤلف من صروف ومحن .

٥ — « حظ بارى لينتون المحترم » وقد نشرها سنة ١٨٤٤ على حلقات وهى سيرة ذاتية لوغد أيرلندى على غرار قصة فيلدينج المشهورة المسماة « يوناثان وايلد » وفيها تنديد بالأفكار الرومانسية الضالة المضللة ، وتتميز هذه القصة بسخريتها اللاذعة وواقعيتها التاريخية وأسلوبها المتدفق فى السرد .

٦ — « كتاب المتحذلقين » وقد نشرت هذه القصة تباعاً بين سنتى ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، وهى عبارة عن أربعة وأربعين لوحة حية ساخرة لشتى صنوف المتحذلقين فى المجتمع الإنجليزى الراقى .

٧ — وفى سنتى ١٨٤٧ و ١٨٤٨ بدأ مرحلة النضج بآيته « سوق الأباطيل » فكانت بدعة لاعتمادها على قوة التصوير فى محيط واسع لا على دقة الحبكة وعدم دورانها حول بطل معين .

٨ — ثم أتبعها بين سنتى ١٨٤٨ و ١٨٥٠ « بتاريخ بنديس » وقد اعترف أنه يحاكى بها قصة توم جونس لفيلدينج ، وهى أيضاً قصة بغير عقدة تبدو فيها عناصر السيرة الذاتية واضحة .

٩ — وظهرت قصته « تاريخ هنرى إزموند » فى سنة ١٨٥٢ وهى رواية تاريخية تدور حول شاب جرت مأساة حياته فى عصر المؤامرات اليعقوبية وحروب مارلبورو . ويعتقد النقاد أن هنرى إزموند أكمل قصصه من حيث الشكل وتفاضل الشخصيات ونقاء الأسلوب .

١٠ — وبين سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٥ ظهرت قصته « آل نيوكم » وهى رواية قوية تشرح أحوال مجتمع عصره وتعلق الناس فيه بالدنيويات وتطلع الطبقة الوسطى حديثة الثراء إلى التشبه بالطبقة الراقية .

١١ — أما « الفرجينيون » فظهرت فى سنتى ١٨٥٧ و ١٨٥٩ ثمرة لجولة محاضرات قام بها فى الولايات المتحدة فجاء مسرح حوادثها عالمياً يمتد إلى أقطار كثيرة وهى بمثابة تتمة لقصته لقصته « هنرى إزموند » .

١٢ — فى سنة ١٨٦٠ نشر قصة « لوفيل الأرمل » وهى صورة قصصية من مسرحية كتبها سنة ١٨٥٤ بعنوان « الذئاب والحمل » .

١٣ — وفى ١٨٦١ و ١٨٦٢ نشر « مغامرات فيليب » وهى استطراد طويل لقصته « حكاية مهلهلة » وتعتبر أضعف روايات فترة النضج .

١٤ — وفى سنة ١٨٦٤ (بعد وفاته) نشرت ثمانية فصول من قصة تاريخية لم تتم عنوانها « دينيس ديفال » وكانت تبشر بعمل عظيم عند تمامها .

وله غير تلك الأعمال أعمال أخرى متفرقة منها :

١٥ — كراسة الصور السريعة من باريس سنة ١٨٤٠ وهذا الكتاب عبارة عن ست قصص صغيرة وثلاثة عشر مقالا ، وقد نشر هذا الكتاب بتوقيع « تيتمارش » .

١٦ — وفى سنة ١٨٤٠ أيضاً نشر « يوميات كوكس » وهى قصة حلاق تلقى ميراثاً ضخماً ثم أضاعه .

١٧ — وفى سنة ١٨٤٠ كذلك نشر قصة « مؤامرة بدفورد رو » .

١٨ — وفى سنة ١٨٤١ نشر كتابه « صور سريعة لشخصيات » ومن ضمنها شخصية الكابتن روك النصاب وفريسته مستر بيجون (ومعنى الاسمين الكابتن غراب وفريسته السيد حمامه) .

١٩ — وفى سنتى ١٨٤٢ و ١٨٤٣ نشر على حلقات قصة اعترافات سماها « أوراق فتزبودل » .

٢٠ — وفى سنة ١٨٤٣ نشر « شبح ذى اللحية الزرقاء » .

٢١ — وفى سنة ١٨٤٥ نشر « أسطورة الراين » .

٢٢ — وفى سنة ١٨٤٦ نشر « ربيكا وروينا » وهى تتمة فكاهية لرواية ايفانهو لوالتر سكوت .

٢٣ — وفى سنة ١٨٤٧ نشر « قصص بأقلام أفاضل الكتاب » وهى محاكاة تهكمية ضاحكة لأسلوب نفر من معاصريه البارزين مثل دزرائيلى وليتون وكوبر . ولقصة ثكرى نفسه « يلو بلاش » .

٢٤ — وفى سنة ١٨٥٠ نشر « آل هيكلبرى على شاطىء الراين » بتوقيع تيتمارش .

٢٥ — وفى سنة ١٨٥٤ ظهرت مسرحيته « الذئاب والحمل » .

٢٦ — وفى سنة ١٨٥٥ ظهرت قصته الضاحكة « الوردة والخاتم » وهى من أشهر قصص الأطفال الضاحكة .

٢٧ — وبين سنتى ١٨٥١ ، ١٨٥٣ ألقى محاضراته عن كتّاب الفكاهة الإنجليز فى القرن الثامن عشر .

٢٨ — وبين سنتى ١٨٥٥ ، ١٨٦٠ ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات بعنوان « ٤ جورج » .

٢٩ — وفى سنة ١٨٦٣ نشر « أوراق جوال » وهى مجموعة مقالات .

وهكذا ظل ذلك الكاتب الفحل يكدح لينتج بغير توقف إلى أن وافاه الأجل فى الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٦٣ ، بعد أن غدا علما من أبرز معالم الأدب الإنجليزى ، وعلماً شامخاً بين كتاب القصة الإنسانيين الأصلاء فى العالم أجمع .

* * *

القصـــة

ولئن كان ديكنز هو علم القصص الإنجليزى فى تصوير أحوال الطبقة الدنيا فى عهد الثورة الصناعية والتنديد بسوءات المجتمع ، إلا أن معرفة ديكنز بالطبقة الثرية والطبقة الراقية لم تقم على التجربة والمخالطة فجاء تصويره لهما مجافياً لصميم الواقع . أما ثكرى فهو الخبير الذى لا يشق له غبار بأحوال الطبقة الثرية والطبقة الراقية فى زمنه . وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن ثكرى كان عدو الرومانسية التى سادت الأدب فى شبابه فنصّب نفسه للتنديد بزيفها وتهافتها .

وكان سند ثكرى كما ذكرنا إطار حياته . ومعرفة مستفيضة بلغات أجنبية شتى . ومخالطة طبيعية بحكم مولده ونسبه للبيئات الثرية والأرستقراطية فى إنجلترا وخارجها . وكانت الكوارث التى منى بها سبباً فى تفجير غضبه وتصديه للكشف عن جوانب الرياء والأنانية والقسوة والجمود فى حياة هاتين الطبقتين .

ولئن كانت الرومانسية تجنح إلى الإسراف فى تصوير العواطف ، وتعنى بشخصية البطل فى القصة حتى لتكاد ترفعه فوق مرتبة البشر فهو إما ملك كريم أو شيطان مريد ، فان ثكرى بعدائه للرومانسية يقسم الأهمية فى قصصه على جملة شخوص يصورهم على حقيقتهم بما فى نفوسهم من سواد وبياض ومن قوة وضعف .

ولا ينسى لثكرى أنه أول قصصى أدخل الفلسفة الحقيقية إلى فن القصة فى إنجلترا . وهو الذى تابع الاتجاه الذى بدأه فيلدينج فى ترسم الواقع ووجوب أمانة الكاتب فى تصويره وتحليله بلا تزيد ولا زيف .

لكل تلك الأسباب أحدث ظهور « سوق الأباطيل » سنة ١٨٤٧ صدى هائلا ، وقسمت الجمهور القارئ والنقاد إلى معسكرين متقابلين . فمنهم الجامدون الذين الذين شنوا على القصة ومؤلفها حرباً شعواء لأنهم

اعتبروها فضحاً شائناً وقحاً للقيم الاجتماعية الراسية . أما الفريق الآخر فكان إعجابه بالقصة والمؤلف لا يكاد يقف عند حد . ومن هذا الفريق الأخير الكاتبة النابغة « شارلوت برونتى » صاحبة « جين اير » التى جعلت إهداء الطبعة الثانية من كتابها هذا إلى ثكرى بعبارات تفيض إجلالا وإعجاباً حتى لقد رفعت مكانه فوق مكان أصحاب الرءوس المتوجة بحق العبقرية الأصيلة وشجاعة الرأى التى تلحقه بالمبشرين المنذرين من أصحاب الرسالات .

وكان هدف ثكرى من « سوق الأباطيل » كما ذكر فى بعض رسائله — وهو يؤلف القصة — إلى أمه : أن يصور مجموعة من أبناء زمنه الذين يعيشون فى الدنيا وكأنها بغير إله يراقبونه ويخشونه ، فهم طاعون متعجرفون أخساء مكتفون بذواتهم معظم الوقت مطمئنون إلى كمال فضيلتهم واحتشامهم ما داموا يحافظون على سلامة المظهر .

وحرص ثكرى أن يضع تحت العنوان تعريفاً شارحاً هو « قصة ليس لها بطل » . فتضاربت الأقوال فى تفسير تلك العبارة . وكان مما ذهب إليه الناس أن البطولة فى القصة لم تعقد لرجل بل لبطلة من النساء . وذهبوا إلى أن « بيكى شارب » هى هذه البطلة . وذهب فريق آخر إلى أن البطولة موزعة على أطراف البيئة الاجتماعية التى يصورها الكاتب رجالا ونساء . وذهب فريق ثالث إلى أن الكاتب يجحد فكرة البطولة من أساسها وما تنطوى عليه من نبل مثالى فى السلوك . بل إن منهم من قال إن المؤلف يرمى إلى إنكار كل سلوك بشرى مستقل يتسم بالفردية ، سواء فى ذلك السلوك الصالح والسلوك الطالح .

ولعل الأقرب إلى طبيعة ثكرى فى التهكم والسخرية أن فى تلك القصة بطلا بالمعنى الصحيح الوحيد للبطل فى العصر الحديث . وهذا البطل هو السيد المهذب باطناً وظاهراً كما يتمثل فى شخصية « وليم دوبن » . وبهذا الاعتبار يكون المعنى الذى رمى إليه أن بطل القصة الحقيقى سيخفى أمره على الكثرة الغالبة من القراء لأنهم لا يعرفون خصائص البطولة الحقة . فليس من الضرورى أن يكون البطل العصرى كأبطال الزمن السالف من سلالة عريقة . فوالد دوبن كان بقالا . ولا أن يكون وسيما ذرب اللسان منتفخ الأوداج ذا خيلاء . وأن تسلط عليه الأضواء ويقر له من حوله بالتفوق . فثكرى حريص فى قصته على أن يجعل ذلك البطل مغمور الفضل لا يلتفت خلطاؤه إلى سمو معدنه . وهى إشارة واضحة إلى ما يلقاه الإنسان الفاضل فى دوامة العصر الحديث — أو بعبارة أخرى فى « سوق الأباطيل » — من جهل لقدره وعمى عن فضله . فعليه أن ينزوى فى الصفوف المتأخرة إذ لا مكان له فى الصف الأول . وهكذا كان دوبن بعيداً عن الأحداث الرئيسية فى القصة . ولم يستطع البطل الحقيقى أن يقوم بدور البطولة . فاستحقت القصة أن تنعت بأنها بغير بطل . كما استحق المجتمع الذى تصوره القصة أن يوسم بأنه لا مكان فيه للأبطال الحقيقيين ، لأن من طبيعته أن يهدر أولئك الأبطال ويلفظهم وأن يملأ مواضع البطولة بمن ليسوا من البطولة فى شىء .

وترتب على هذا أن استأثرت ببؤرة الأحداث فى الرواية امرأتان ، قد يسميهما الناس بالمعنى الدارج — لا بالمعنى الذى رمى إليه ثكرى — بطلتين ، وهما « بيكى شارب » و « أميليا سدلى » . وقد جمعتهما معاً التلمذة فى مدرسة بينكرتون للفتيات ، وهى معهد داخلى بإحدى بقاع الريف .

وذات صباح مشرق من شهر يونيه وقفت عربة آل سدلى المطهمة أمام باب المعهد لتحمل أميليا بعد

تخرجها إلى دار أبويها ، وفى صحبتها ربيكا (بيكى) شارب ، وهى فتاة يتيمة كان أبوها فناناً فقيراً وأمها راقصة فرنسية . وكانت تقوم فى المعهد ببعض الخدمات فى مقابل تعليمها وطعامها . وقد ألحقت بعد تخرجها بوظيفة مربية لدى أسرة السير بت كراولى ، إلا أنها كانت أثيرة جداً لدى أميليا الطيبة المدللة الرقيقة فدعتها لقضاء أسبوع فى بيت أسرتها بميدان راسل بلندن قبل أن تستقبل أولى صفحات حياتها العملية الشاقة أجيرة لدى الطبقة التى كانت بناتها زميلات لها فى مقاعد الدرس !

وهكذا منذ الصفحة الأولى نجد أنفسنا بازاء فتاتين إحداهما ذكية طموح وضعها القدر فى مرتبة دون ما تصبو إليه بكثير . وقد عقدت العزم على أن تقتنص لها زوجاً يرفعها إلى مستوى زميلتها التى لا ذكاء لها ولا طموح لديها ولا صلابة . وقد وضعتها الأقدار فى مستوى لا زيادة عليه لمستزيد — فى نظر المجتمع — وفى نظر بيكى .

وفى بيت آل سدلى تلتقى بيكى بجوزيف شقيق أميليا الموظف بشركة الهند الشرقية وقد عاد لقضاء إجازة . وهو شاب بدين سخيف العقل مغرور نهم أرعن جاهل . ولكنه صاحب ثروة طائلة ، فتنصب حوله بيكى شباكها وتطيل إقامتها أسبوعاً آخر لهذا الغرض وتكاد تنجح فى إغرائه لولا أن « جورج أوزبورن » وهو ضابط فى الجيش وابن بالتعميد لمستر سدلى الكبير (والد أميليا) وخطيب أميليا ثار ورأى من المهانة له أن يتزوج صهره من فتاة دون طبقته ومركزه ، فنكص جوزيف سدلى على عقبيه . ولم تجد بيكى بداً من الرحيل إلى مقر عملها وقد خسرت الجولة الأولى فى حملتها للظفر بزوج ثرى .

وبدأت الجولة الثانية فى بيت السير « بت كراولى » وهو رجل متطرف فى الشح والبخل والجهل ، ولكن ثراءه ونسبه أتاحا له مقعداً فى البرلمان ، وشأناً فى مجتمع المدينة والريف أى شأن . وله من زوجته الأولى ولدان أكبرهما لاهوتى وأصغرهما ضابط فى سلاح الفرسان . وله من زوجته الثانية فتاتان . وله أخ يتولى منصب الكاهن فى مقر الأسرة الريفى . والأخوان — السير بت والكاهن — بينهما تنازع وبغضاء بسبب ميراث قديم . والأخوان ابنا السير بت بينهما عداوة وبغضاء لتنازعهما على الحظوة لدى العمة مس كراولى العجوز الثرية التى تؤثر بمحبتها الضابط أصغر الأخوين الشابين . فالجو كله مشحون بالتباغض والتحاسد والتناظر على عرض الدنيا ومظاهرها المادية .

وأخذت بيكى تكيف نفسها بالجو الجديد ، وتتراءى لكل طرف من الأطراف فى الصورة التى تروقه ، فسرعان ما صار اعتماد الأب عليها فى كل مراسلاته وشئونه الخاصة . وصارت مقربة كذلك لدى كل من الأخوين الشابين على حدة ، ولدى مس كراولى العجوز الثرية حين جاءت لتمضية فترة من الوقت فى بيت أخيها . وما أن ماتت ليدى كراولى الثانية حتى وجد السير بت من الطبيعى أن يتوجه إلى مربية بنتيه المثقفة العليمة باللغة الفرنسية الذكية حسنة التصريف والسمت يطلب يدها . وعندئذ لم تجد بدا من الاعتذار له كاشفة عن سر أخفته طويلا ، وهو أنها متزوجة فى الخفاء من ابنه الأصغر الضابط « راودن كراولى » الذى كان مفهوماً أن عمته ستخصه بكل ثروتها التى تربى على سبعين ألفاً ذهباً .

ولم تجد بيكى بعد ذلك بداً من الرحيل مع زوجها الشاب إلى بروكسل فى سنة ١٨١٥ ، حيث توجه زهرة ضباط الجيش الإنجليزى استعداداً للموقعة الحاسمة مع جيوش نابليون فى ووترلو .

وذهب إلى بروكسل فى نفس الوقت زوجان شابان آخران هما الكابتن « جورج أوزبورن » وعروسه أميليا .

وكان هرب نابليون من منفاه فى جزيرة إلبا ونزوله فى كان فى مارس سنة ١٨١٥ مدعاة لانهيار الأسعار فى بورصة لندن ، مما أودى بثروة كثير من رجال المال الأثرياء ومنهم سدلى والد اميليا . وانقض عليه الدائنون لتصفية أملاكه حتى آخر دانق . وأضخم هؤلاء الدائنين وأشدهم ضراوة هو صديقه وجاره الحميم القديم «جون أوزبورن » والد خطيب ابنته . وكان سدلى هو الذى حاط ذلك الرجل فى مفتتح حياته العملية برعايته ومهد له سبيل الثراء . وكان هو الذى تبنى عند التعميد ابنه جورج ويقوم بنفقات كسائه كل سنة . فلما أثرى الرجل وسنحت له الفرصة كى يقضى على ولى نعمته سدلى لم يتردد . وهدد ابنه جورج بالحرمان من الميراث إن هو تزوج اميليا . بيد أن جورج أبدى صلابة ونخوة . وسانده فى ذلك صديقه الشهم الكابتن وليم دوبن الذى كان يحب اميليا سراً ولكنه يقدم صديقه على نفسه ويخلص له الود والعون . وتكفل بديون صديقه بعد أن تبرأ منه أبوه بسبب الزواج .

ومرة أخرى أبدع ثكرى فى تصوير سطوة المال على عقول هذه الفئة من الناس وخلقهم بحيث يقلبهم شراً من الوحوش ويجعل لهم قيما تختفى منها النوازع الإنسانية والعواطف ، حتى عاطفة الأبوة نحو ابن وحيد !

وكانت اميليا تزدرى وليم دوبن صديق زوجها وزميله فى الدراسة وتبنى رأيها على الظاهر من قامته غير المشوقة ، وسحنته العاطلة من الملاحة وحركاته غير الرشيقة وحديثه البعيد عن التنميق . فهى لسطحيتها وتفاهتها ، التى تمثل سطحية وتفاهة نساء مجتمعها كله ، لم تنفذ إلى معدن الرجل الحقيقى وما ينطوى عليه من كريم الخلق وسامى الأحاسيس . وكان دوبن يعرف رأيها فيه فتقبله باذعان ولم يؤثر ذلك فى حبه وبذله الجهد لإسعادها بما يقدمه من عون صادق لصديقه الذى اختاره قلبها رغم خفته ونزقه واشتغاله بالسفاسف والمظهريات .

وأما بيكى فكانت من الفطنة بحيث أدركت حقيقة دوبن . بيد أن ذلك لم يقربه إليها بل على العكس جعلها تجفل منه لأنه من معدن لا تنطلى عليه ألاعيبها . فكرهته كراهة الأعوج للمستقيم والمخادع للصادق الأمين . وعرف دوبن حقيقتها فنفر منها نفوراً أملته عليه فطرته المستقيمة من أهل الوصولية والخداع .

وما أن نشبت المعارك حتى راح ضحيتها الكثيرون وكان من هؤلاء « جورج أوزبورن » . وبذل دوبن سعيه الحثيث لدى والده « جون أوزبورن » كى يقدم شيئاً من العون لأميليا أرملة ابنه التى تحمل فى أحشائها حفيده الوحيد . فان المعاش الضئيل الذى تتقاضاه لا يسمح لها ولحفيدها المنتظر بحياة شبه كريمة . بيد أن الشيخ أبى واستكبر وعاشت أميليا ست سنوات فى الفاقة والضنك مع طفلها ووالديها . أما دوبن فرحل للخدمة فى الهند حيث لحق بجوزيف سدلى .

وكان أوزبورن العجوز قد عرض عليها راتباً سنوياً فى نظير التخلى عن الطفل بصفة نهائية ليجعله وريثه الأوحد . وقاومت اميليا سنوات ، ثم ازدادت حالة أبيها سوءاً على سوء فاضطرت للإذعان . واستقبل الشيخ ذلك الإذعان بالتشفى والشماتة .

وفى ذلك الوقت كانت حالة بيكى وزوجها قد بلغت الغاية من الاضطراب . فالعمة العجوز أبت أن تموت . فضاقت بيكى بحياة الفاقة وراحت تنصب شباكها لذوى الجاه والثراء من خلطاء زوجها ، ولا سيما اللورد « ستين » . واكتشف زوجها « راودن كراولى » تلك الأمور وعذبه الشك فهجرها هجرا أبدياً وتولى منصب حاكم جزيرة كوفنترى النائية . ورحلت بيكى إلى نابلى وراء مغامرات جديدة بعد أن خسرت جولتها الثانية .

وابتسم الحظ لاميليا مرة أخرى عندما عاد أخوها من الهند بثروة كبيرة ومعه وليم دوبن الذى رقى إلى رتبة ميجر . بيد أن موجة السرور لم تلبث أن انتهت بوفاة والديها فى مدى فترة وجيزة . وكان أوزبورن الشيخ قد كبر وطامن من عنجهيته . واكتشف من مراجعة أوراق حفيده أن دوبن هو الذى تكفل بمعظم نفقاته ونفقات أمه قبل أن يتولى الجد أمر الحفيد ، فانتابه من ذلك خجل وندم ودعاه لزيارته وتوطدت بينهما الصداقة . وصار يسأل دوبن عن أحوال أرملة ابنه ، بعد أن كان يتجاهل وجودها ولا يأذن لأحد أن ينطق باسمها أمامه . ثم أصيب الشيخ بفالج فمات وإذا به يترك معظم ثروته فى وصيته لحفيده ، ويخص أرملة ابنه براتب سنوى كبير ويعينها وصية من بعده على ابنها . ويعين وليم دوبن منفذاً شرعياً للوصية .

وبعد قليل رحلت اميليا وابنها وشقيقها جوزيف الثرى ووليم دوبن للقيام بسياحة فى القارة . والتقى جوزيف ببيكى اللعوب فتجدد هيامه بها وتأثر بما قصته عليه من محنتها بلسان الزيف والبهتان . وكان الوحيد الذى لم تنطل عليه أكاذيبها هو وليم دوبن . ولما أصرت اميليا على صحبتها عطفاً عليها غضب دوبن وترك الجماعة لشأنها وعاد إلى إنجلترا . وقد صارحته أميليا أنها لا ترضاه زوجاً وإن كانت تحب أن تحتفظ بصداقته وقربه .

وفى غضون تلك الرحلة تبينت اميليا ما تتعرض له بسذاجتها من المخاطر هى وابنها ما لم تركن إلى رعاية دوبن الذى رقى فى تلك الأثناء كولونيلا ، فكتبت إليه حيث لحق بها فى أوستن وتقاعد من الخدمة وتزوجها وأقاما معاً فى ريف هامشير .

أما الكولونيل راودن كراولى حاكم جزيرة كوفنترى فمات بالحمى الصفراء ، ولحق به أخوه بعد ستة أسابيع . وحصلت بيكى من تركة السير كراولى على راتب سنوى سخى ، سمح لها باجتذاب عدد كبير من الشبان الفارغين الذين يطرون جمالها ويتحسرون على ترملها الباكر .

ويختم ثكرى قصته التى تزيد على ربع مليون كلمة بقوله :

« باطل الأباطيل . الكل باطل وقبض الريح ! ومن ذا الذى رزق منا السعادة فى هذه الدنيا ؟ » .

وما من صفحة من صفحاتها التى تقارب الألف إلا وهى تستوعب القارئ وتقدم إليه شخوص القصة نابضين بالحياة فى يسر وبساطة وصدق ، ولا يفوت المؤلف لفتة واحدة من غير أن يدلى بتحليله الساخر اللاذع ، فتحس وراء سخريته قلب الإنسان الرحيم الذى يتأذى لما فى نفوس البشر من فساد وضعف وتعلق بالأباطيل . وتحس فى الوقت نفسه أن هذا المحزون الرحيم الحكيم لا يكاد يجد عن هذا الشر والضعيف محيصاً . وأنه هكذا خلق الناس ، وعلى هذا جبلوا . فلا مكان بينهم للفاضل البر ، وهم مشغولون بالغواية والزهو والبطر .

شذرات مختارة

● إن العالم مرآة تعيد إلى كل إنسان صورة وجهه . فان أنت عبست لها نظرت إليك شزراً . وإن ضحكت لها ومعها انقلبت رفيقاً عطوفاً خفيف الروح . وعلى الشباب أن يختاروا بين هاتين الخطتين . فلئن أهملت الدنيا أمر الآنسة شارب ، فهى لم يعرف عنها أنها أولت أى إنسان عارفة . وليس من المأمول أن تكون الشابات الأربع والعشرون جميعاً فى مثل عذوبة روح بطلة هذا العمل الآنسة سدلى (التى تخيرناها بالذات لأنها أطيب الجميع قلباً ، وإلا فماذا كان يحول بيننا وبين تخير الآنسة شوارتز أو الآنسة كرامب أو الآنسة هوبكنز بطلة بدلا منها ؟) ليس من المأمول أن تكون كل واحدة منهن دمثة رقيقة الجانب كالآنسة اميليا سدلى التى

انتهزت كل فرصة للتغلب على صلابة قلب ربيكا ووعورة طبعها . وبآلاف من الكلمات الرقيقة واللفتات استطاعت أن تقهر — مرة واحدة على الأقل — عداوتها لأفراد جنسها .

● ولم تكن (ربيكا شارب) قد اختلطت فى طفولتها بالنساء : فوالدها على خلاعته وإباحيته كان ذا موهبة ، حديثه أحب إليها ألف مرة من أحاديث بنات جنسها كما عرفتهن الآن (فى معهد) . فغرور المعلمة العجوز المتعجرفة ، ومراخ شقيقتها البلهاء ، والثرثرة السخيفة والتنقل بالفضائح لدى الفتيات الكبيرات ، والجمود المتزمت لدى المربيات . كل ذلك كان يضجرها . ولم تحظ بقلب أم حان فتجد بهجة وتسلية فى أحاديث صغار الأطفال بالمعهد ممن كان يوكل إليها عادة أمر رعايتهم . فما من أحد ساوره الأسف على رحيلها .

● إن ما تتمتع به الشابات من حولها من سعادة ونعماء كان يثير فى ربيكا غصصاً من الحسد لا توصف فتقول عن إحداهن : « ما أشد خيلاء هذه الفتاة وتعاظمها لأنها حفيدة إيرل ! » أو تقول عن أخرى : « ما أشد اهتمامهم وذلهم لتلك الفتاة كريول بسبب المائة ألف التى تملكها ! إنى لأبرع منها ألف مرة وأشد فتنة وسحراً ، مهما يكن من أمر ثرائها ! وإنى لصنو لحفيدة الإيرل فى حسن التربية مهما يكن من أمر نسبها العريق ! وما من أحد مع هذا يقيم لى وزناً فى هذا المكان ! » .

● رجل ممتلىء الجسم إلى حد بعيد ، تلتف حول عنقه أربطة كثيرة هائلة تكاد ترتفع إلى مستوى أنفه ، ويرتدى صداراً أحمر مخططاً وسترة خضراء تفاحية ذات أزرار من الفولاذ يكاد يبلغ حجمها حجم ريال فضى — فهذه هى كسوة الصباح لذوى الأناقة المعرقين فى تلك الأيام — وكان هذا الرجل يطالع إحدى الصحف بجوار النار عندما دخلت الفتاتان فوثب من مقعده المريح واحتقن وجهه غاية الاحتقان وأخفى وجهه كله تقريباً بين أربطة عنقه ، فقالت اميليا ضاحكة وهى تهز البنانين اللذين مدهما إليها : « إن أنا إلا شقيقتك يا جوزيف . فقد جئت كما تعلم لأقيم بصفة نهائية هنا بعد أن غادرت المعهد . وهذه صديقتى الآنسة شارب التى سمعتنى أذكرها كثيراً » . فقال الرأس المتوارى تحت أربطة العنق وهو يرتجف ارتجافاً شديداً جداً : « لا . لم أسمعك تذكرينها إطلاقاً . . أعنى نعم سمعتك ! يا له من جو فادح البرودة يا آنسة » . وانكب على النار يحركها بكل قوته ، مع أن التقويم يشير إلى أن اليوم هو منتصف يونيه !

وهمست ربيكا لاميليا بصوت حرصت على أن يكون مسموعاً جداً : « ما أشد وسامته ! » فقالت اميليا : « أهذا رأيك ؟ سأخبره » . فقالت الآنسة شارب مجفلة خجلى كالريم : « عزيزتى ! ناشدتك الله لا تفعلى ! » وكانت قد انحنت لذلك السيد فى خفر وإجلال عذريين ، وقد غضت طرفها الحيى إلى البساط ، حتى صار من أعجب العجب أن تكون قد وجدت الفرصة للتطلع إلى وجهه . . .

● ولئن كانت الآنسة ربيكا شارب قد قررت فيما بينها وبين نفسها أن تغزو قلب ذلك الغندور الكبير المتأنق ، فلست أرى يا سيداتى من حقنا أن نوجه إليها الملام . فلئن كانت مهمة اقتناص الأزواج توكل عادة — وفى حدود الحياء اللائق — إلى الأمهات ، فلا يغيبن عنا أن الآنسة شارب لم تكن لها أم عطوف ترتب لها تلك الأمور الدقيقة ، فما لم تعمل على الفوز لنفسها بزوج فلن تجد فى الدنيا على رحبها من يقوم عنها بتلك المهمة . ثم ما الذى يحدو بالشابات للخروج من البيت اللهم إلا غرض الزواج الشريف ومطمحه النبيل ؟ وما الذى يرمى بهن إلى مدن المياه ؟ وما الذى يظل يرقصهن إلى الخامسة صباحاً طوال موسم كامل مميت ؟ وما الذى

يحملهن على الكد والنصب فى إتقان المعزوفات الموسيقية على البيانو كى يحفظن عن ظهر قلب أربع أغان على يد معلم موسيقى معروف يتقاضى جنيهاً عن كل درس ، وأن يعزفن على الهارب إن كانت لهن أذرع جميلة ومرافق أنيقة يبرز جمالها العزف على تلك الآلة الوترية ، وأن يرتدين قبعات لينكولن الخضراء ذات الريش ، ما لم يكن مرادهن من ذلك كله السعى إلى اصطياد شاب مرموق بأقواسهن وسهامهن المصمية ؟ وما الذى يحدو بالوالدين المحترمين أن يرفعوا بسطهم ويقلبوا بيوتهم رأساً على عقب وينفقوا خمس إيرادهم السنوى فى حفلات عشاء راقصة وتقديم الشمبانيا المثلجة ؟ أهو الحب المحصن لبنى جنسهم والسرور النزيه بمرأى الشبان وهم يسعدون بالرقص ؟ حاشا ! إن مرادهم كله أن يزوجوا بناتهم !

وكما رتبت مسز سدلى الأمينة فى أعماق فؤادها الرقيق عشرات من المشروعات الصغيرة لمستقبل ابنتها اميليا ، كذلك عزمت محبوبتنا اليتيمة ربيكا على أن تبذل قصارى جهدها للفوز بزوج هو ألزم لها من لزوم الزوج لصديقتها اميليا . وإن لها لمخيلة متوقدة ، وقد اطلعت فوق هذا على ألف ليلة وليلة وجغرافية جثرى . وقد حرصت وهى ترتدى ثيابها للعشاء أن تسأل اميليا عن أخيها فعرفت منها نبأ ثروته الطائلة وراحت تشيد لنفسها أفخم قصر يشاد فى الهواء . . ورأت نفسها سيدة ذلك القصر ، وفى مكان ما من المؤخرة الخلفية زوج غير واضح الملامح ، وقد تزينت شخصياً بعدد لا يحصى من الشيلان والعمائم وقلائد الماس وامتطت فيلا يمشى بها على إيقاع الموسيقى وهى فى طريقها لأداء الزيارة الرسمية الاحتفالية لكبير المغول ! وإنها لمزية الشباب وامتيازه أن يشيد مثل تلك القصور ، وكم من شابة بعيدة مرمى الخيال قبل ربيكا شارب انساقت فى تيار تلك الأحلام العذاب !

● قال جوزيف سدلى يحدث نفسه : « هل تهزأ بى هذه الفتاة أم تراها تظننى وسيما حقاً ؟ » وقد وصفنا جوزيف سدلى من قبل بأنه مغرور كالفتيات . ألا سامحنا الله ! فمن حق الفتيات أن يقلبن الوضع ويقلن عن إحدى بنات جنسهن : « إنها مغرورة كالرجال » فلا يعدون الصواب . فذوو اللحى مخلوقات لا تقل عن النساء تلهفاً على المديح والإطراء ، وشغفاً بالزينة ، ولا يقلون عنهن زهواً بمحاسنهم الجسدية واعتداداً بقدرتهم على الفتنة والإغراء ، شأنه فى ذلك شأن أى غانية من الغوانى !

● (اختار جوزيف سدلى طبقاً من الكارى الهندى باعتباره طعامه المفضل كى تتذوقه ربيكا . وما أن ابتلعت منه لقمة حتى شرقت ودمعت عيناها لما فيه من توابل حريفة . وأقبل عليها جوزيف يرفه عنها وهى تزداد تألماً على سبيل الدلال لتستزيد من رقته) .

وصاح جوزيف وقد استوقفته سخافة ما حدث وفكاهته فانفجر يضحك مقهقهاً ثم سكت فجأة كعادته : « رباه ! لقد عرفوا كيف يجعلونك تبكين ! » فقالت له ربيكا وهى تعود معه إلى حجرة المائدة لاستئناف الطعام : « سأحذر الآن من أن أتركك تختار لى طعامى مرة أخرى . ولم أكن أحسب الرجال شغوفين بايلام الفتيات الضعيفات المسكينات » فقال لها : « لعمرى يا آنسة ربيكا ما كنت لأوذيك مهما كانت الحال » فقالت : « أعرف هذا » ثم ضغطت على يده ضغطة هينة بيدها الصغيرة ، ثم سحبت يدها كالمذعورة ، ورشقت وجهه بنظرة سريعة ثم غضت بصرها إلى نقوش البساط . ولست مستعداً أن أشهد بأن قلب جوزيف لم ينتفض لتلك الحركة الرقيقة الحانية الخجول غير الإرادية التى صدرت عن الفتاة الساذجة .

لقد كانت تلك منها خطورة لعل بعض السيدات المتزمتات الراقيات يشجبنها ويرينها بعيدة عن سمت الحياء . ولكن العزيزة المسكينة ربيكا لم يكن لها مناص

من أداء كل هذه المهام بنفسها . فحينما يبلغ من فقر شخص أن يعجز عن استخدام من يكنس له مسكنه ، فعليه مهما كانت أناقته أن يكنسه بنفسه . وكذلك الفتاة التى لا أم لها ترتب شئونها مع الشاب الذى تريده عليها أن تقوم بجميع تلك الخطوات بنفسها .

● عندما ماتت الزوجة الأولى للسير بت كراولى وقع اختياره على الآنسة روز داوسون ابنة مستر جون توماس داوسون تاجر الحديد فى مدبيورى . وما كان أسعد روز من امرأة لأنها غدت تدعى ليدى كراولى !

ولنعدد عناصر سعادتها : فهى فى المقام الأول قد تخلت عن « بيتر بت » الشاب الذى كان يلازمها . فلما خاب أمله فى حبها وجه همه إلى التهريب والصيد فى المناطق المحرمة وألف عمل آخر من أعمال السوء . ثم أردفت ذلك — كما هو الواجب — بقطع ما كان بينها وبين سائر رفاق صباها وصواحبها من الأسباب ، إذ ليس من المعقول طبعاً أن تستقبلهن الليدى صاحبة القصر . وفى المقام الثالث لم تجد من أهل طبقتها الجديدة أحداً يرضى بالترحيب بها والتزاور معها . وأين عساها تجد ضالتها ! إن السير هدلستون فدلستون له ثلاث بنات كل منهن كانت ترجو أن تغدو ليدى كراولى الثانية . والسير جايلز وابشوت ساءه إساءة بالغة ألا يقع الاختيار على إحدى بنات أسرته الكثيرات . وسائر بارونات الإقليم استنكروا أن يعقد زميلهم هذا الزواج غير المتكافىء . ونغض النظر عن أفراد طبقة العامة ، فسنتركهم يزمجرون غفلا بغير أسماء !

ولم يكن السير بت يأبه — على حد قوله — شروى نقير لأحد من هؤلاء جميعاً ، فلديه حسناؤه روز ، وماذا ينشد الرجل أكثر من إمتاع نفسه ؟ وهكذا ألف أن يثمل كل ليلة ، وأن يضرب روز الحسناء أحياناً ، ويتركها فى هامشير عندما يذهب إلى لندن لحضور دورة انعقاد البرلمان وليس معها من يؤنسها فى هذه الدنيا الرحيبة . وحتى مسز « بيوت كراولى » ، زوجة شقيقة القس كانت تأبى أن تزورها ، لأنها على حد قولها ما كانت لتعترف بالتقدم عليها فى المقام لابنة رجل من أصحاب الحرف .

ولما كانت مواهبها الوحيدة التى مهرت بها الطبيعة الليدى كراولى وجنتين حمراوين وبشرة بيضاء ، وليس لها شىء من قوة الطبع أو المواهب العقلية أو الآراء أو الاهتمامات أو الهوايات أو قوة الروح وعنفوان الطبع الذى قد يتيسر فى كثير من الأحيان لذوات البلاهة من النساء ، فلا عجب ألا تكون سطوتها على عواطف السير بت بالغة الشدة . فورد وجنتيها ذوى وانحسر عنهما ، ونضارتها المحببة زايلت قوامها وسحنتها بعد مولد طفلتيها ، وأمست فى بيت زوجها آلة لا جدوى لها أكثر مما لبيانو الليدى الكبير .

ولما كانت امرأة بيضاء اللون فهى تؤثر أن ترتدى ثياباً ذات لون زاه كمعظم الشقراوات ، وتؤثر على الخصوص اللون السماوى . . وفيما عدا حديقة أزهارها الصغيرة التى تشغف بها لم تكن تخص شيئاً ببغض أو حب . وحين يخاشنها زوجها تنقبض نفسها . وحين يضربها تبكى . ولم يكن لها من حدة الطبع أو قوته ما يدفعها إلى احتساء الشراب ، وحسبها أن تئن وتتحسر على سوء طالعها وهى تسير فى أرجاء القصر منتعلة خفاً ، وقد التفت حول خصلات شعرها الأوراق الملتوية التى تعقصها به .

واهاً لك يا سوق الأباطيل ! لولاك لكانت روز صبية تفيض مرحاً وبهجة وقد صارت زوجة لبيتر بت فى مزرعة صغيرة تعيش فيها أسرة بهيجة تموج حياتها بنصيب وافر من المسرات والاهتمامات والآمال والكفاح ! بيد أن لقب الشرف والعربة المطهمة ذات الخيول الأربعة ملاعب أشد سحراً ونفاسة فى سوق الأباطيل من أفاويق السعادة مجتمعة ! وهل تراك تحسب هنرى الثامن أو ذا اللحية الزرقاء لو كان حياً اليوم ونشد لنفسه زوجة عاشرة (بعد أن أودى بحياة الزوجات

التسع) كان حرياً ألا يجد ضالته فى أى فتاة يختارها من بين أجمل الحسان التى يحفل بهن هذا الموسم الاجتماعى ؟

● . . . ها هم الحلفاء وقد تدفقوا على فرنسا . ولكن جرس الطعام ظل يرن فى موعده الموقوت فى بيت آل سدلى بغير اختلاف . ولست أحسب اميليا المسكينة كانت تكترث أدنى اكتراث بأخبار المواقع وأنباء المؤتمرات قبل أن تسمع بنبأ تنازل الامبراطور (نابليون الأول) عن العرش ، فاذا بها تصفق بيديها ، وترفع إلى السماء أكف الضراعة وصلوات الشكر — فما كان أشد عرفانها لفضل السماء فى هذه اللحظة ! — ثم ألقت بنفسها بين ذراعى جورج أوزبورن بصورة أدهشت كل من رأى تلك المظاهرة العاطفية . فجلية الأمر أن السلم قد أعلن وأن أوربا قد حظيت بالراحة والأمن بعد أن هزم الكورسيكى ، وأن فرقة الملازم أوزبورن سوف لا تدعى للخدمة العاملة فى الميدان . فعلى هذا المنوال كان تفكير الآنسة اميليا . فمصير أوربا فى نظرها يتلخص فى الملازم جورج أوزبورن فأما وقد زالت المخاطر فهى تترنم بأهازيج الشكر ، لأنه عندها هو كل أوربا . وهو امبراطورها . وهو عواهلها الأحلاف . إنه شمسها وقمرها . وإخالها تظن تلك الزينات والأنوار والمراقص التى أقيمت فى قصر العمدة بلندن للملوك والعواهل المنتصرين ، إنما هى قد جرت خصيصاً على سبيل التكريم لبطلها الأوحد جورج أوزبورن !